فى المدرسة الريفية بقرية المنايل

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

ليس بين المعنيين بالمسألة الاجتماعية من يجهل اسم المنايل، تلك القرية التى فازت بين ألوف القرى المختلفة باختيارها المركز الاجتماعى الأول والمقر المنتقى لتجارب المشتغلين بأمر الريف العاملين لنهضته . لذلك كان لزاما علينا ونحن نترسم فى هذا الباب خطى الإصلاح ونقتفى آثاره، أن نعرض لتجارب المنايل عرض الباحث الفاحص لنرى مبلغ ماحققته ومدى ما أسفرت عنه تلك الاختبارات التى مضى على القيام ببعضها سنوات ثلاث .

قام العمل الاجتماعى بالمنايل بجهود هيئات أربع : الأولى وزارة الشؤون الاجتماعية، والثانية جمعية الدراسات الاجتماعية ، والثالثة رابطة التربية الحديثة ، وأخيرا مجلس مديرية القليوبية . تعاونت هذه الهيئات على القيام بعمل جديد فى بابه فأنشأت بهذه القرية أول مركز اجتماعى وألحقت به مستوصفا ومركزا لرعاية الطفل والأمومة، وانشأت كذلك المدرسة الريفية الأولى التى أقامتها جمعية الدراسات الاجتماعية بإشراف رابطة التربية الحديثة، وتولى مجلس المديرية الإنفاق عليها .

ولما كانت مسألة التعليم الشعبى من أمهات المسائل الاجتماعية التى تشغل الأذهان اليوم ، وخاصة أن ولاة الأمور يعنون الآن بإعداد سياسة تعليمية جديدة لما بعد الحرب القائمة، وقد طلبت وزارة المعارف فعلا إلى المشتغلين بالتعليم أن يوافوها بما يعن لهم من رأى أو اقتراح ، لذلك رأينا أن نفرد فى هذا بحثا خاصا للمدرسة الريفية باعتبارها تجربة عملية وتطبيقا لنظرية حديثة خرج بها لفيف من صفوة المشتغلين بالتربية فى البلد من نطاق الفكر إلى حيز التنفيذ .

فلقد ظلت مكافحة الأمية إلى عهد قريب هى الهدف الأسمى للتعليم الأولى حتى كان العصر الحاضر وما اتسم به من بروز المسألة الاقتصادية كعامل أساسى ملازم لكل جهد إصلاحى . عند ذلك عمدت المدرسة الحديثة إلى العناية بالمران العملى فى المهن التى تتصل بالبيئة حتى يزود النشء بثقافة تطبيقية يتمكن بها من اكتساب عيش ميسور — إذ ليس أضر من أن نثير بالمعرفة معالم حياة لا يجد الأحياء إلى التمتع بخيرها سبيلا ، إنما ينفع العلم

ويؤتى ثمره حين ينهض بمستوى العيش تهوضه بمستوى الفكر هذا ما انتهى إليه رجال التربية الحديثة فى العالم كله وما قام بترديده كبار المشتغلين بالتعليم بمصر فى كتبهم وفى محاضراتهم وأبحاثهم ثم فى تجربتهم العملية التى نعرض لها اليوم فى مدرسة المنايل الريفية .

فى المدرسة :

فهناك فى الطريق المجاور لبلدة كفر حمزة من أعمال مركز شبين القناطر يرى المشاهد أكواما من اللبن متراصة متجاورة تتوسطها ثلاثة أبنية بيضاء تحوطها الحقول من كل جانب. هذه هى قرية المنايل، وتلك هى مؤسساتها العامة: المدرسة والمستشفى ومركز رعاية الأمومة والطفل التابع للمركز الاجتماعى .

أما المدرسة فتقوم على جناحين متقابلين يفصلهما فناء فسيح، وقد حوى أحد الجناحين فصول التدريس وضم الآخر المعامل الصغيرة التى سنتناول الكلام عنها باسهاب فيما بعد .

وتضم المدرسة مائتين وثلاثين تلميذا وتلميذة من قرى المنايل وسندرة وكفر حمزة .

ويشرف عليها ناظر من خريجى كلية الزراعة يعاونه أربعة مدرسين للمواد النظرية واثنان للصناعات ومعلمتان للأشغال اليدوية والفنون الطرزية .

ومنهاج الدراسة جديد فى بابه وهو مأخوذ عن نظم التعليم الحديثة فى أمريكا وفى أوربا، فهو يبدأ بالصلاة ثم بدروس نظرية للبنين فى لغة البلد والحساب وفى المعلومات العامة من جغرافيا وتاريخ وتربية وطنية فى وقت تشتغل فيه البنات بدروس عملية ، فإذا كان النصف الثانى من اليوم خرج البنون إلى أماكن الدرس العملى وحلت البنات محلهم وهو نظام مأخوذ من بعض المدارس الأمريكية The Gary Schools وبه يتيسر الانتفاع بالمكان و بالمعلمين طول اليوم .

وإن من أظهر ما تمتاز به المدرسة الريفية مسايرتها البيئة التى يعيش فيها الأولاد، فزيهم جلباب من القماش المعروف بالدمور وطاقية، و بينهم الكثيرون حفاة الأقدام (وهو أمر نرجو أن يعمل مجلس المديرية على تلافيه، وخاصة أن البلد يعمل اليوم على مقاومة الحفاء) وقد كان الأولاد إلى عهد قريب يحيكون ملابسهم على أنوالهم بالمدرسة، إلا أن مجلس المديرية رأى إمدادهم بالملابس المجانى هذا العام — وتدور دروس المدرسة الريفية كذلك حول البيئة، فالمطالعة والحساب ودروس الرسم كلها عن الفلاح وحياة الفلاح وزرعه وبيته وسوقه ومواشيه وحبوبه. كذلك يراعى البدء بالمشاهد فى البيئة المحيطة فى دروس التاريخ وعلم تقويم البلدان وفى التربية الوطنية ، فالطريقة الاستقرائية هى المتبعة فى كافة الدروس ، فمن الخاص الملموس ينتقل المعلم إلى العام البعيد — وقد حضرنا درسا فى المعلومات العامة بدأ فيه المعلم بسؤال الصغار

عن اسم البلد الذى يسكنون، ثم عمن يحكم هذه القرية وعما يتكون من مجموعة القرى المتجاورة واسم الوحدة التى تضم المراكز المتقاربة ، ومن يديرها وهكذا تدرج المدرس بالأولاد من الأقسام الإدارية الصغيرة فى الإقليم إلى الأقسام السياسية التى تنتهى بتعريف الدول والقارات.

على أن أهم ما تمتاز به المدرسة الريفية ويسمو بها عن مراتب التعليم الشعبى العام من إلزامى وأولى عنايتها الكبيرة بالدراسة العملية، إذ تخصص نصف اليوم للعمل اليدوى الذى يكسب الصغير مرانا يمكنه من مزاولة المهن التى تتصل ببيئته وحسبنا أن نعدد مرافق مدرسة المنايل كما شاهدناها :

أولا — حقل مساحته أربعة أفدنة يقوم الأولاد بالعمل فيه ساعات معينة بمعاونة اثنين من الفلاحين يحرثونه ويبذرون به الحب ويسمدونه — ويتعهدونه بالسقاية والعناية وهكذا يجدون الفرصة لدراسة فن الزراعة بإشراف ناظر من المعلمين بأصولها .

ثانيا — مصنع صغير به أنوال لنسج الأكلمة الصوفية والسجاجيد والأقمشة الشعبية وقد شاهدنا بهذا المصنع قطعا من السجاجيد البديعة الصنع وأقمشة قام الصغار بنسجها بأيديهم كما أطلعنا المعلم على تصميمات أدهشنا أنها من وضع الأولاد ومن مبتكراتهم .

ثالثا — فناء للدواجن به أنواع مختلفة من الطيور الممتازة يقوم الأولاد بتربيتها وبيع بيضها لسكان القرية رغبة فى تحسين الانتاج والاكثار من الأنواع المنتجة .

رابعا — منحل صغير يتكون من خليتين حديثتين تنتج الواحدة مائة رطل من العسل فى السنة ولا ريب فى أن تربية النحل من أفضل ما ينبغى أن يدرس ويعمم بالريف. اذ يدر كسبا وفيرا دون أية نفقة .

خامسا — حجرة لتربية دودة القز وبها جهاز بخارى لفك الشرانق .

سادسا — حجرة لصناعة الخيزران يجاورها مكان لصنع أثاث وأسوار من جريد النخل .

سابعا — معمل صغير للربيات والشراب والخضر المحفوظة .

وقد استلفت أنظارنا فى سير العمل بالمدرسة ثلاثة أمور :

(الأول) أن القائمين بأمرها جعلوا من التدريب العملى فرصة لتثبيت المعلومات النظرية ناهجين فى ذلك الطريقة المعروفة عند المشتغلين بالتربية بطريقة المشروع The Project Metod إذ يعمدون الى تكليف الأولاد بقياس ووزن وكيل المنتجات ثم سؤالهم عن مواطن إنتاج كل منها وتعريف هذه المواطن مما لايدع مجالا لنسيان ما تلقوه فى حجرات الدرس من معلومات .

(الثانى) تبث المدرسة الريفية فى أبنائها روح التعاون والاقتصاد إذ نظمت بينهم جماعة تعاونية اكتتب الأولاد بأسهمها وهم يتولون بأنفسهم شراء بعض منتجات المدرسة وبيعها للأهلين وحساب الربح وتوزيعه ورصده كل فى دفتره الخاص .

(الثالث) أن المستوى الثقافى للأولاد رغم إشغال نصف يومهم بالزراعة والصناعة أرقى بكثير من المستوى فى المدارس الأولية ولا نكون مبالغين اذا قلنا أنه يفوق مستوى المدارس الابتدائية فلقد شاهدنا صغارا لا يتعدون السابعة يدرسون بعض ما يدرس فى السنة الثالثة الابتدائية وقد كلفت بنفسى طفلا فى السادسة اسمه الشاعر بحل مسألة تتضمن القواعد الحسابية الأربع فقام بحلها فى سرعة وعناية .

ولم يشأ القائمون بأمر المدرسة أن نتركهم قبل أن يطلعونا على بعض مظاهر النشاط المدرسى فبعد عرض رياضى لمسنا فيه أتم العناية بصحة الأولاد وروح النظام التى بثت فيهم بعد هذا انتقلنا الى الحقل حيث أمضينا بين هؤلاء الأبناء ساعة من أمتع الساعات وأسعدها فهناك بين زرع نبت بعناية الأولاد وازدهر بسقايتهم أطلعنا الصغار على صور أخاذة من صور الريف وأسمعونا ألحانا عذبة فى التغنى بالريف وبالإشادة بجماله وسعادة العيش فيه .

عند صاحب المشروع :

وفى كرمة هادئة فى ضاحية الزيتون جلسنا الى الأستاذ محمد فريد أبو حديد صاحب مشروع المدرسة الريفية والذى رعاه وباشر تنفيذه والاشراف عليه الى عهد قريب ، جلسنا نستمع الى قصة ذلك المعهد الذى نرى فيه العمل المثالى الصالح للتعليم الشعبى بريف بلادنا قال : فى عام ١٩٢٥ عقد المشتغلون بالتعليم فى البلاد مؤتمرا للتعليم الأولى تناولوا فيه مناقشة سياسة التعليم الأولى فى البلاد وما ينبغى أن تقوم عليه ، وعلى الرغم من اجماع شهود المؤتمر على وجوب تغيير أسلوب التعليم الحاضر واقامته على أسس جديدة أسوة بما يفعله الغربيون الذين جعلوا من المدرسة الأولية معهدا يعد الصغير لحياة عملية تتفق مع البيئة التى نبت فيها على الرغم مما قيل فى هذا المؤتمر الذى عقد قبيل انشاء المدارس الالزامية فقد قام التعليم الالزامى على ذات النمط الساذج الذى قامت عليه كتاتيبنا القديمة والذى لا يهدف لغير غاية واحدة هى مكافحة الامية لا أكثر ولا أقل .

وصمت الأستاذ قليلا ثم عاد يقول " وكان طبيعيا ألا تلقى هذه الخطة ارتياحا من رجال التعليم وخاصة من ألم منهم بأصول التربية الحديثة ووقف على ما تتجه الدول الغربية من

سبل موفقة فى هذا الباب لذلك لقى التعليم الالزامى نقدا مرا من المشتغلين بالتعليم ونوقشت سياسة التعليم فى مقالات ومحاضرات وأبحاث عديدة وكان فى مقدمة المعنيين بهذا رابطة التربية الحديثة ، وتابع الأستاذ فريد حديثه فقال :

"وفى عام ١٩٤٠ قامت الرابطة لمناسبة وجود المسيو بوقيه من علماء التربية فى مصر قامت بعقد اجتماع كبير نوقشت فيه سياسة التعليم الشعبى وعرضت فيه لعدة أبحاث تشرفت بإعداد أحدها . ثم تقدم المجتمعون الى وزارة المعارف حينذاك برجاء إجراء تجربة للمدرسة الريفية فى بعض المدارس الأولية غير أن هذا الطلب لم يجب .

واستوى أستاذنا الفاضل على مقعده ثم قال "وصادف فى ذلك الوقت أن عرض الدكتور كليلاند على جمعية الدراسات الاجتماعية القيام بتجربة لنظام تعليمى شعبى جديد فى قرية المنايل فأوكلت الجمعية الأمر لبعض رجال الرابطة الذين وجدوا فى هذا العرض فرصة للقيام بمشروع المدرسة الريفية الذى تشرفت باعداده وتوليت أمر تنفيذه والإشراف عليه حتى عهد قريب" . .

واختتم الأستاذ حديثه قائلا " لقد فشلت تجربة التعليم الالزامى بوضعه الحاضر ، وأصبح لزاما على البلد أن تفكر فى أسلوب أنفع لتنشئة الجيل الجديد ، وها نحن نقدم فى مدرسة المنايل مثالا عمليا فى سبيل إعداد أبناء الشعب إعدادا يكفل لهم المقدرة على تحصيل القوت دون إهمال للثقافة العامة التى تعطيها المدرسة الأولية " .

مشكلة التعليم الأولى فى ضوء تجربة المنايل :

منذ خمس عشرة سنة استقدمت الحكومة المصرية خبيرا عالميا فى شؤون التعليم وهو المستر مان ليضع للبلد سياسة تعليمية تقوم على نهج صالح . وقد قام الرجل بما طلب اليه وقدم الى ولاة الأمور تقريرا وافيا اكتفى بنشره ثم طوى شأن غيره فى سجلات الوزارة ومكتبات معاهدها .

وكان أول ما استلفت نظر المربى الانجليزى فى بلادنا تضخم نفقات التعليم غير الأولى فى تلك المعاهد العالية وغير العالية التى تخرج لنا كل عام جيشا من الموظفين لا تحتاج البلد الى أغلبيته ، أما التعليم الأولى وهو التعليم الشعبى ذو الأثر الفعال فعنايتنا به لا زالت قليلة وحسبنا أن نذكر ما قاله المستر مان فى تقريره " إن مصر تنفق جنيهين على التعليم المنتهى بالتعليم العالى مقابل جنيه واحد فى التعليم الأولى بينما تنفق انجلترا أربعة جنيهات فى التعليم الأولى مقابل جنيه واحد فى التعليم العالى بالرغم من اختلاف مركز مصر كقطر زراعى أحوج الى التعليم الأولى من انجلترا ذات المجال الأوسع لاستغلال الثقافة العالية " .

ومما يؤسف له حقا أننا مع تقصيرنا فى تعميم التعليم الأولى بالقدر الذى ينبغى فاننا نبتغى فيه سياسة خاطئة إذ نحصر كل همنا فى مكافحة الأمية بواسطة المدرسة الأولية دون أن نضع فى برنامجها ما يكفل تزويد الأولاد بثقافة عملية "مهنية" تنفعهم فى كسب عيشهم، ذلك العيش الذى باتت مشكلة الحصول عليه من أعقد المشكلات وأكبرها أثرا وخاصة فى بلادنا التى هبط فيها مستوى الحياة الى حد خطير .

يقول المسيو لوشاتلييه فى كتابه عن السياسة التعليمية أن سر نجاح التربية الأمريكية راجع فى أكثره الى أنها قرنت العلم بالعمل Instruction by Action — والواقع أننا اذا راجعنا طرق التربية الحديثة نجدها كلها متجهة الى الاهتمام بالناحية العملية وحسبنا أن نشير الى ما كتبه رجال التربية وأعلامها منذ بداية القرن الثامن عشر أمثال جان جاك روسو وبستالوتزى وفروبل وهربارت وغيرهم وأن نرجع الى أساليب التربية العصرية فى كل معاهد العالم فالدكتور أوفيد دكرولى Ovride Decroly يقيم طريقته المعروفة على أساس العمل المناسب للبيئة حتى يزود الصغير بالثقافة التى سيفيد بها فى حياته المستقبلة والتى تدور حول القوت وتحصيله وهيلين باركهرست جعلت من مدرستها التى شيدتها على طريقتها المعروفة The Plan Dalton مجتمعا مماثلا للمجتمع القائم خارج أسوارها وجون ديوى Dewey صاحب طريقة المشروع يضع العمل المباشر أساسا للتعليم ويقيم فلسفته التربوية على أساس اجتماعى عملى .

يقول الأستاذ رافائيل راميرز من علماء التربية الأمريكيين "ان مدارس اليوم لا تكتفى بتعليم القراءة والكتابة والحساب وإنما تقصد الى رفع الحياة الريفية الى مستوى أعلى تلك الحياة التى تقوم على الصحة والصلاحية لتأدية العمل المنتج" .

ويعطينا الأستاذ " ارنستو نلسون " مفتش التعليم بالأرجنتين صورة جديرة بالنقل لما يقوم عليه التعليم الأولى فى بلاده إذ يقول : "لقد أصبح الاهتمام الأول بإعداد الأولاد للحياة وانتقلت الثقافة النظرية الى المكان الثانى ففى مدارسنا نعلم الأولاد تحضير الزبيب من العنب والمربى والفاكهة المحفوظة ونعلمهم كيف يزرعون أشجار التوت ويربون دود القز ويفلحون البساتين وقد وفق الصغار الى غرس مائتى ألف شجرة عندنا عام ١٩٣٩" .

ويحدثنا الأستاذ بول باربيه عن نظام التعليم الريفى فى فرنسا فيقول ، لقد وجه أكبر جانب من العناية إلى التربية الزراعية فى المدارس الابتدائية . فتشمل البرامج دروسا فى الزراعة وفلاحة البساتين وغرس الأشجار ودراسة الأسمدة وتربية الدواجن .

ويقول كاندل Kandel الأستاذ فى جامعة كولومبيا فى مقدمة الكتاب السنوى لتلك الجامعة " إذا صح القول أن عمل التربية الحديثة هو أن يلائم بين التعليم وبين مقدرة التلاميذ

واستعدادهم وأن يبنى نظمه على المحيط الذى يعيشون فيه وأن يزيد ويضيف إلى ثروة ذلك المحيط فانه لا مناص من أن يستمد التعليم بالريف مادته من المحيط الريفى وأن يتلاءم معه . . . "

وفى تقارير عن التعليم الريفى بالمانيا أن نحو ٧٠ فى المائة من مدارس ألمانيا الابتدائية هى مدارس ريفية وان القصد الأول منها هو إعداد التلاميذ للحياة تدريجيا ، وقد وضع التقليد والتدريس النظرى فى المحل الثانى ومورد مواد التدريس مستمد من المحيط والبيئة .

وما لنا نذهب بعيدا . إن السودان ، السودان الذى يأتم بنا ويرى فى بلانا أسوة وقدوة ، قد سبقنا فى سياسته التعليمية ولم يعد يأخذ بسياسة " الكاتيب " التى نسميها بالمدارس الإلزامية أو الأولية ، وإنما اتجه الى ما اتجه اليه الغرب وأخذ به ، وحسبنا أن نرجع الى ذلك البحث القيم الذى نشره الدكتور الكردانى بك عن مدرسة بخت الرضا وبه يطلعنا على صورة رائعة لبعض ما أصاب إخواننا السودانيون فى هذا السبيل من توفيق كبير

ثم إننا بسياستنا التعليمية فى واد والعالم بأسره فى واد آخر ، إننا ننفق كل عام فى التعليم الأولى أو الإلزامى مبلغا يناهز المليونين من الجنيهات لا نصيب به غير قشور من مبادىء القراءة والكتابة وبصيص من المعرفة النظرية لا يفيد الصغير منها إلا تضررا من حاله وميلا الى النزوح الى المدن ينزح اليها هاجرا الريف . يهجره ويهجر الأرض لأنه لا يطيق البقاء على ما يقيم عليه أبوه الأمى من فقر وضيق ، ولو أننا عنينا بتعليم الصغير مع القراءة والكتابة أصول الزراعة الناجحة وبعض الصناعات الزراعية التى تزيد من كسبه كما تفعل أمم الغرب وكما رأينا فى تجربة المنايل ، لو عنينا بهذا لأحب فلاح المستقبل أرضه وتعلق بها وأفاد من خيرها فائدة تنهض بأسره وترفع مستواه الاجتماعى .

محمد عبد الكريم